المحاضرة السابعة: دور الممالك السودانية في تحديد شكل العلاقات السياسية مع المغرب الإسلامي

تمهيد

قبل الشروع في معالجة الموضوع، لا بد من الوقوف عند إشكالية منهجية جوهرية طالما أثقلت كاهل الدراسات التاريخية المتعلقة بأفريقيا جنوب الصحراء: وهي نزعة **المركزية الشمالية** في تفسير العلاقات بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي. فقد درجت الكتابات التقليدية — سواء أكانت عربية وسيطة أم أوروبية استعمارية — على اختزال هذه العلاقات في حركة أحادية الاتجاه، يقف فيها المغرب مقام المبادر الفاعل والمصدّر للإسلام والحضارة والسياسة، فيما تُوضَع الممالك السودانية في مقعد المتلقي السلبي أو المستجيب المحدود.

غير أن قراءة نقدية متأنية للمصادر المتاحة — العربية منها والمحلية على قلّتها — تكشف صورة مغايرة تماماً: فالممالك السودانية الكبرى كانت **فاعلاً سياسياً أصيلاً**، يمتلك أدوات الضغط والتفاوض والمبادرة، ويتحكم في متغيرات جوهرية تحدد شكل العلاقة ومضمونها ومآلاتها. وعليه، فإن الهدف المركزي لهذه المحاضرة هو إعادة الاعتبار للممالك السودانية بوصفها **محدِّداً بنيوياً** لا هامشاً تابعاً في منظومة العلاقات بين المنطقتين.

تنطلق هذه المحاضرة من إشكالية بحثية يمكن صياغتها على النحو الآتي:

إلى أي حد أسهمت الممالك السودانية الغربية — بمواردها وخياراتها الاستراتيجية وأنظمة شرعيتها السياسية — في رسم ملامح العلاقات السياسية مع المغرب الإسلامي، وتحويلها من علاقة تبعية إلى علاقة توازن أو مواجهة؟

المحور الأول: القوة الاقتصادية سلاحاً سياسياً — مملكة غانة نموذجاً

1.1 احتكار الذهب: السلاح الصامت

يُجمع المؤرخون على أن مملكة غانة (القرن 3 – 6 هـ / 9 – 12م) كانت تُحكم قبضتها على تجارة الذهب بأسلوب يكشف عن وعي سياسي حاد. فقد أفاد البكري في *المسالك والممالك* بأن ملوك غانة كانوا يحتفظون بقطع الذهب الكبيرة لأنفسهم ويُطلقون للتداول حبيبات المسحوق فحسب، وهي سياسة لا تخلو من دلالة اقتصادية عميقة: **إبقاء الندرة المصطنعة ضامنة للقيمة وأداة لإدارة العلاقة مع الشركاء الشماليين.**

وهذا يعني أن غانة لم تكن مورداً سلبياً للذهب بل كانت **مُنظِّماً فاعلاً للسوق**، تحدد متى ترفع العرض ومتى تخفضه وفق حساباتها السياسية، مما يجعل علاقتها مع المغرب علاقة قائمة على التبادل المشروط لا على التبعية العمياء.

1.2 ضريبة العبور: بناء الدولة من الشمال

طوّرت غانة نظاماً ضريبياً محكماً يفرض رسوماً على كل بضاعة تدخل أراضيها أو تخرج منها. وقد كانت القوافل المغربية والصنهاجية تدفع هذه الرسوم مقابل الأمان والعبور، مما يجعل الدولة السودانية **مُحتكِرة شرعية** لمنافذ التجارة الصحراوية. وهذا النمط يُعيد تأطير العلاقة مع المغرب: فبدلاً من أن يكون المغرب الطرف المانح والمورِّد، يظهر بوصفه مديناً بوصول بضاعته إلى حسن نية الدولة السودانية وتسهيلها.

1.3 إشكالية الغزو المرابطي: قراءة نقدية

يكتسب الغزو المرابطي لغانة عام 1076م دلالة خاصة في سياق هذه المحاضرة، لأنه أبرز لحظة تحوّلت فيها القوة الاقتصادية السودانية إلى **عامل استفزاز** للتدخل الشمالي. فالتساؤل الجوهري الذي طرحه المؤرخون منذ فضيلة الدباغ وحتى نهميا ليفتزيون هو: هل كان الغزو مدفوعاً بحوافز دينية كما صرّحت المصادر المرابطية، أم كانت الرغبة في كسر احتكار غانة للذهب هي الدافع الحقيقي؟

والأرجح لدى الدارسين المحدثين أن الدافعين تشابكا، لكن الأهم من هذا الجدل هو استنتاجٌ مفاده: أن ثروة غانة وسيطرتها على موارد الصحراء هي التي جعلتها **هدفاً** للتدخل المرابطي، أي أن قوتها الاقتصادية كانت في الوقت ذاته مصدر نفوذها السياسي ومصدر الخطر عليها.

المحور الثاني: توظيف الإسلام ورقةً سياسية — إمبراطورية مالي نموذجاً

2.1 الشرعية الإسلامية أداةً دبلوماسية

إذا كانت غانة قد وظّفت القوة الاقتصادية أداةً سياسية في علاقتها مع المغرب، فإن إمبراطورية مالي (القرن 7 – 9 هـ / 13 – 15م) أضافت إلى هذه الأداة بُعداً آخر بالغ الأهمية: **الشرعية الإسلامية**. فمع إسلام الأسرة الحاكمة الكيتية وتعمّق انتسابها للإسلام، أصبح الحكام الماليون قادرين على التعامل مع دول المغرب الإسلامي بلغة مشتركة تُسوّي بينهم على الصعيد الرمزي وتُضفي على العلاقة طابع الأخوة الإسلامية لا التراتب الحضاري.

2.2 حج مانسا موسى: السياسة بلغة الدين

لا يمكن فهم حج مانسا موسى عام 1324م بوصفه حدثاً دينياً صرفاً؛ فهو قبل كل شيء **عملية دبلوماسية محسوبة بدقة**. وهنا ينبغي للطالب أن يتأمل العناصر الآتية:

الحجم والبهاء: قدّر المعاصرون حجم الموكب بعشرات الآلاف من الأفراد وكميات هائلة من الذهب. وهذا الإبهار لم يكن ترفاً بل كان رسالة سياسية مباشرة إلى الحكام الذين مرّ ببلاطهم، ومفادها: أن مالي ليست مملكة هامشية بل قوة عظمى ذات ثقل لا يُستهان به.

المرور ببلاط المغرب: توقف مانسا موسى في بلاط السلاطين المغاربة لم يكن مجرد محطة في طريق الحج، بل كان فرصة لإرساء اعتراف متبادل يضع مالي في مصافّ الدول الكبرى التي يُحسب لها حساب.

استقطاب الكفاءات: إعادة مانسا موسى معه لعلماء ومعماريين من المغرب والأندلس — وفي مقدمتهم أبو إسحاق الساحلي — كان استثماراً في **القوة الناعمة**؛ فتمبكتو التي تتزين بمساجد مشيّدة على يد معماريين مغاربيين هي تمبكتو القادرة على استقطاب مزيد من العلماء والتجار، وبالتالي تعزيز نفوذ مالي في الفضاء الإسلامي الأوسع.

2.3 الاستقلالية في مقابل الانفتاح: جدلية ثنائية القطب

ما يُميّز سياسة مالي في التعامل مع المغرب أنها جمعت بين قطبين متوازيين:

قطب الانفتاح: قبول العلماء والتجار والمؤثرات الثقافية الشمالية، وتوظيفها في تعزيز مكانة الدولة الحضارية.

قطب الاستقلالية: الحرص على عدم تحويل هذا الانفتاح إلى تبعية؛ فالملوك الماليون لم يطلبوا اعترافاً سياسياً من أي حاكم مغربي، ولم يخضعوا لأي سيادة دينية سوى الخلافة الإسلامية البعيدة التي كانت ذاتها قد فقدت سلطتها الفعلية.

وهذا التوازن الدقيق هو ما يميّز مالي عن نماذج التبعية الكاملة، وما يجعلها نموذجاً لما يمكن تسميته بـ**"الانتساب الانتقائي للفضاء الإسلامي"**.

المحور الثالث: الاستراتيجية والمواجهة — إمبراطورية سنغاي نموذجاً

3.1 التمدد الجغرافي سياسةً احتوائية

بلغت إمبراطورية سنغاي في ظل سلالة الأسقيين (1493 – 1591م) مستوىً من القوة والتمدد لم تبلغه أي دولة سابقة في المنطقة. وقد كان هذا التمدد في جوهره **استراتيجية احتوائية**: إذ بسطت سنغاي سيطرتها على منطقة تغازة (ملح الصحراء) وعلى منافذ التجارة الصحراوية، مما وضعها في موضع المتحكم في شريان رئيسي من شرايين الاقتصاد المغربي.

وهذا يعني أن سنغاي لم تكن تنتظر أن تتقرر مصالحها في مفاوضات الشمال، بل كانت تُنشئ على أرض الواقع **حقائق جيوسياسية** تُجبر المغرب على الأخذ بها.

3.2 الأسقيا محمد وإدارة الشرعية الدولية

يُعدّ الأسقيا محمد توري (1493-1528م) نموذجاً فريداً للحاكم السوداني الذي أتقن توظيف المتغير الديني في خدمة أهداف سياسية استراتيجية. فقد سعى بنشاط ملحوظ إلى:

أولاً — استصدار الفتاوى الدينية: كتب الأسقيا محمد إلى كبار علماء المغرب والمشرق طالباً آراءهم الفقهية في مسائل حكومية وسياسية، وهو ما يبدو للوهلة الأولى استجداءً للمرجعية الشمالية، لكنه في حقيقته **استثمار في الشرعية الخارجية** لتوطيد سلطته الداخلية.

ثانياً — طلب لقب "خليفة السودان": سعى الأسقيا إلى استصدار هذا اللقب من شريف مكة، بما يعني رفضه الضمني لأن يُعرَّف سياسياً بالنسبة إلى أي قوة مغربية، إذ وجّه انتسابه الديني والسياسي مباشرة إلى مكة متجاوزاً الوسيط المغاربي.

ثالثاً — التعاون العلمي المحسوب: احتفت سنغاي بعلماء المغرب وأجزلت عطاءهم، لكن في إطار يُقدّم الأسقيا راعياً للإسلام لا تابعاً له. وهو توازن دقيق تجلى في علاقة الأسقيا بالعالم الجليل **أحمد بابا التنبكتي** الذي كان صوتاً مستقلاً للعلم ولم يكن بوقاً للسلطة أياً كانت.

3.3 نقطة الانكسار: لماذا لم تستطع سنغاي الصمود؟

إذا كانت سنغاي قد امتلكت كل هذه الأدوات والكفاءات، فثمة سؤال جوهري يطرحه طلاب الماجستير بحق: لماذا انهارت أمام الحملة السعدية عام 1591م؟

تجدر الإشارة هنا إلى أن انهيار سنغاي لم يكن حتمياً ولم يكن نتيجة ضعف بنيوي متراكم فحسب، بل كان تقاطعاً لعوامل داخلية وخارجية:

على **الصعيد الداخلي**، كانت سنغاي تعيش أزمة خلافة حادة أضعفت تماسكها وشتّت طاقتها العسكرية. كما أن اتساع الإمبراطورية جعل السيطرة المركزية أمراً عسيراً.

على **الصعيد الخارجي**، جاء التدخل المغربي موظِّفاً تقنية عسكرية جديدة (البارود والمدفعية) لم تكن سنغاي قد واجهتها من قبل، وهو فارق تكنولوجي لا يُعبّر بالضرورة عن تفوق حضاري بل عن حظوظ الجغرافيا في الوصول إلى الابتكارات الأوراسية.

والخلاصة: أن سنغاي لم تهزمها الحضارة بل هزمتها **الصدفة التاريخية** المتمثلة في تزامن أزمتها الداخلية مع تطور أسلوب الحرب في الشمال.

المحور الرابع: أنماط الفاعلية السياسية — تحليل مقارن

4.1 جدول مقارنة الأدوات السياسية للممالك السودانية

المملكة	الأداة الرئيسية	طبيعة العلاقة مع المغرب	النتيجة الاستراتيجية
غانة	احتكار الذهب والطرق	تبادل مشروط بضريبة العبور	علاقة ندية انتهت بالتدخل المسلح
مالي	الشرعية الإسلامية والقوة الناعمة	تعاون انتقائي مع استقلالية سياسية	علاقة إيجابية مستدامة
سنغاي	التمدد الجغرافي والتفاوض الديني	توازن دقيق متأرجح بين التعاون والتوتر	انهيار تحت ثقل الأزمة الداخلية والتدخل الخارجي

4.2 أنماط التفاعل: ما وراء ثنائية القبول والرفض

يمكن استخلاص ثلاثة أنماط متمايزة في طريقة تعامل الممالك السودانية مع علاقاتها مع المغرب:

النمط الأول — الانتفاع الانتقائي: وهو النمط الذي جسّدته مالي حين استقطبت كل ما يُعزز قوتها من علماء وتجار ومعماريين ومخطوطات، مع الحرص على ألا يُترجَم هذا الاستقطاب إلى تبعية سياسية.

النمط الثاني — الضبط الاستراتيجي للموارد: الذي مارسته غانة وسنغاي حين جعلتا من السيطرة على الموارد الحيوية (الذهب والملح) أوراقاً للضغط في العلاقة مع الشمال.

النمط الثالث — توظيف المرجعيات الرمزية: وهو ما برع فيه الأسقيا محمد حين لجأ إلى المرجعية الدينية الإسلامية الكبرى متجاوزاً الوساطة المغربية، في استراتيجية يمكن وصفها بـ**"الشرعية المستوردة لمقاومة التبعية"**.

المحور الخامس: الفاعلية الثقافية والعلمية امتداداً للسياسة

5.1 تمبكتو: نموذج الفاعلية الثقافية السودانية

لم يكن دور الممالك السودانية في تحديد شكل علاقاتها مع المغرب محصوراً في الميدان السياسي والعسكري؛ فقد كان للفاعلية الثقافية حضور قوي لا يمكن إغفاله. فمدينة تمبكتو التي ازدهرت في العهد المالي والسنغاوي لم تكن مجرد مستقبِلة للإشعاع الثقافي الشمالي، بل أصبحت بمرور الزمن **مركزاً مشعّاً بذاته**، يستقطب العلماء من المغرب وبلاد الشام والأندلس ويُصدّر إنتاجه الفكري في شتى اتجاهات العالم الإسلامي.

والدلالة السياسية لهذه الحقيقة عميقة: فالمغرب الذي يُرسل علماءه إلى تمبكتو ثم يُقرّ بإشعاعها العلمي يُعترَف ضمنياً بقيمة مرجعيتها، وهذا بدوره يُعيد توزيع موازين الهيبة بين الإقليمين.

5.2 المخطوطات: حجة على الاستقلالية الثقافية

تحتفظ مدن السودان الغربي وفي مقدمتها تمبكتو بمئات الآلاف من المخطوطات التي أنتجها علماؤها المحليون، في الفقه والعلوم والتاريخ والشعر. وهذا الإرث الهائل لا يدل فقط على إبداع ثقافي مستقل، بل يدل أيضاً على أن الحوار الفكري بين الإقليمين كان حواراً بين **ندّين** لا بين مُعلّم ومتعلّم.

المحور السادس: إعادة النظر في المفاهيم — قراءة في الأدوات المنهجية

6.1 نقد مفهوم "التأثير المغربي"

على طلاب الماجستير أن يتعاملوا بحذر مع مفهوم "التأثير المغربي" أو "الأثر الشمالي" الذي يُستخدم في الكثير من الأدبيات لوصف ما أضافه المغرب إلى بلاد السودان. فهذا المفهوم، على صحته من جوانب، ينطوي على افتراض ضمني إشكالي: أن الأثر كان أحادي الاتجاه، من الشمال إلى الجنوب، من المتحضر إلى البدائي.

والأدق أن نتحدث عن **تفاعل متبادل** أنتج حضارة مشتركة تُعدّ كلٌّ من المنطقتين مساهماً فاعلاً في صياغتها.

6.2 استحضار نظرية التبعية في السياق السوداني

يجدر بطلاب الماجستير إثارة التساؤل: هل يمكن تطبيق **نظرية التبعية** (Dependency Theory) كما صاغها إيمانويل والرستين وفرانك على إطار العلاقات السودانية المغربية؟

الإجابة المتوازنة هي أن النظرية تفسّر جوانب من العلاقة لا سيما الصيغة الاقتصادية غير المتكافئة، لكنها تفشل في استيعاب الحيّز الواسع من الاستقلالية السياسية التي حافظت عليها الممالك السودانية، والدور الفاعل الذي اضطلعت به في تشكيل شروط التبادل وصياغة أجندة العلاقة.

خاتمة

تكشف المسيرة التاريخية للعلاقات السياسية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، حين تُقرأ من منظور دور الممالك السودانية، عن حقائق تعيد رسم الصورة المعهودة:

أولاً: كانت الممالك السودانية فاعلاً سياسياً حقيقياً يمتلك أدوات التأثير في العلاقة مع الشمال، وليست متلقياً سلبياً لمؤثرات خارجية.

ثانياً: تباينت أساليب هذه الفاعلية بين المملكة والأخرى، من توظيف القوة الاقتصادية لدى غانة إلى توظيف القوة الناعمة لدى مالي، مروراً بالتوازن الاستراتيجي الذي مارسته سنغاي.

ثالثاً: يُشكّل الإسلام متغيراً إيجابياً في هذه العلاقات من زاوية أنه وفّر لغة تفاوض مشتركة ومنحة شرعية لكلا الطرفين، لكنه في الوقت ذاته كان أداةً في يد كل طرف يوظفها لأهدافه السياسية.

رابعاً: إن الانهيار الذي حل بسنغاي على يد الحملة السعدية لا ينبغي تفسيره باعتباره خلاصة حتمية لعلاقة متفاوتة القوى، بل هو لحظة تقاطعت فيها أزمة داخلية وعامل خارجي استثنائي تمثّل في الأسلحة النارية التي كسرت معادلة التوازن القائمة.

خامساً وأخيراً: إن إعادة تأهيل الفاعلية السودانية في قراءة تاريخ هذه العلاقات ليست مجرد تصويب أكاديمي، بل هي مشروع إنصاف تاريخي وشرط ضروري لكل فهم علمي موضوعي لهذه الحقبة.

محاضرة أكاديمية طلبة السنة أولى ماستر — تاريخ الغرب الإسلامي

العلاقات الاقتصادية

التجارة والموارد بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي

عناصر المحاضرة

- 1 - البنية التجارية :الطرق، القوافل، والمراكز التجارية الكبرى
- 2 - السلع الرئيسية :الذهب، الملح، العبيد والمنتجات الأخرى
- 3 - الأطراف الفاعلة :التجار، الوسطاء، والدول
- 4 - الأنظمة النقدية والمالية
- 5 - التداعيات الحضارية والاقتصادية
- 6 - المصادر والإشكاليات المنهجية
- 7- خلاصة واستنتاجات | أسئلة للنقاش

البنية التجارية

أ - الطرق التجارية العابرة للصحراء

تُشكّل التجارة العابرة للصحراء الكبرى (Trans-Saharan Trade) العصب الأساسي للعلاقات الاقتصادية بين الغرب الإسلامي والسودان .وتتميز ثلاثة محاور رئيسية:

الطريق الغربي) درب المغرب – غانة(

- يربط مدينة سجلماسة) جنوب المغرب الأقصى (بأودغست وكومبي صالح
- هيمنت عليه قبائل صنهاجة الملثمون ولمتونة قبل قيام دولة المرابطين
- تستغرق الرحلة ما بين 60 إلى 90 يوماً في أحسن الأحوال

الطريق الأوسط) درب توات – حوض النيجر(

- يمر بواحات توات ووادي درعة نحو ماسينا وجاو وتمبكتو
- يُعدّ أكثر المسالك خطورةً لقسوة تضاريسه وندرة الآبار
- خضع في معظمه لسيطرة التوارق والقبائل الصحراوية الموازية

الطريق الشرقي) درب فزان – كانم بورنو(

- يصل طرابلس وإفريقية بمملكة كانم-بورنو
- أقل انتعاشاً مقارنةً بالمسارين الغربي والأوسط
- يتقاطع مع طرق الحج القادمة من غرب أفريقيا

ب - المراكز التجارية الكبرى

سجلماسة

أُسّست في القرن الثاني الهجري وغدت بوابة الصحراء الرئيسية؛ كانت مقر الصيارفة والتجار القادمين من كل أرجاء العالم الإسلامي . ازدهرت في عهد الأدارسة والمرابطين واستمر دورها حتى اكتشاف طرق بديلة.

أودغست

مركز تجاري وسيط بين سجلماسة وغانة، احتضن جاليات تجارية مغاربية وشمال أفريقية .وصفها البكري بأنها مدينة كبيرة آهلة بالسكان، تنتعش فيها الأسواق ليلاً ونهاراً.

كومبي صالح

عاصمة مملكة غانة المزدوجة :مدينة الملك ومدينة التجار المسلمين .تجسّد هذه الثنائية نموذجاً ناجحاً للتعايش الاقتصادي والديني بين الطرفين.

تمبكتو وجني

نشأتا في منطقة الانحناء الكبير لنهر النيجر، وأصبحتا مع مالي وسونغاي مراكز إشعاع حضاري جمعت بين التجارة والعلم الإسلامي.

المحور :السلع الرئيسية

أ - الذهب :السلعة الملكية

يُعدّ الذهب المحرّك الأساسي للتجارة العابرة للصحراء .تشير المصادر إلى أن مناجم بامبوك) في حوض نهر السنغال (وبور) في غينيا (كانت أشهر مصادر الإنتاج .ومن أبرز ملامح هذه التجارة:

- أسهم الذهب السوداني في رسملة المسكوكات المغاربية والأندلسية وبعض الأوروبية
- ظاهرة' التجارة الصامتة :'لم يكشف أهل السودان عن مواقع مناجمهم للأجانب
- حجم الذهب المُصدَّر كان كبيراً لدرجة أنه أثّر في أسعار الذهب في السوق المتوسطية
- وصف المسالك والممالك للبكري والرحلة لابن بطوطة تجارة الذهب بتفصيل دقيق

ب - الملح :الذهب الأبيض

لم تكن مناجم الملح في الصحراء) تغازة، تاودني (أقل أهمية من مناجم الذهب؛ فقد كان الملح شحيحاً في السودان الغربي، مما جعله يعادل الذهب في القيمة أحياناً .أبرز ما يُلاحظ:

- سيطرة المرابطين على واحة تغازة أضافت إليهم مصدراً استراتيجياً للدخل
- عقود البيع بالوزن :رطل من الملح مقابل رطل من الذهب في أوقات الشح
- الملح ضروري للصحة وحفظ الغذاء في المناطق الاستوائية

ج - تجارة الرقيق

كانت تجارة العبيد المحور الثالث في ترتيب أهمية السلع .نُقل أعداد كبيرة من أهل السودان عبر الصحراء لخدمة البلاطات والجيوش في شمال أفريقيا وأوروبا .تكشف الدراسات الحديثة عن تعقيد هذه الظاهرة وصلتها بالبنى الاجتماعية والسياسية في الطرفين.

د - سلع التبادل الأخرى

من الجنوب إلى الشمال	من الشمال إلى الجنوب
الذهب) الصادر الأول(	الخيول) تُبادل بالرقيق(
العاج والجلود	النحاس والنحاسيات
ريش النعام والتوابل	الأقمشة والمنسوجات المغاربية
الصمغ العربي وطيب الدخن	المواد الزجاجية والخرز
المنتجات الزراعية المدارية	التمر والقمح والزيت

المحور :الأطراف الفاعلة

أ - التجار المغاربة

- الإباضيون من جربة ووارجلان :أقدم شبكة تجارية صحراوية موثقة
- عائلات تجارية من فاس وسجلماسة وتلمسان امتلكت وكلاء في كومبي صالح وتمبكتو
- الجاليات اليهودية المغاربية :دور محوري في التمويل وتبادل المعلومات التجارية

ب - قبائل الوساطة الصحراوية

- صنهاجة الملثمون :أمّنوا القوافل وفرضوا رسوم العبور على الطريق الغربي
- التوارق) إيمهار :(سيطروا على المسالك الوسطى والشرقية بمعرفتهم بالصحراء
- قبيلة لمتونة :نواة المرابطين وأشهر القبائل الوسيطة في ق 5-4 هـ

ج - الدول والسلطات السياسية

- ملوك غانة :فرضوا ضريبة على كل بضاعة تدخل أو تخرج من أسواقهم
- الأمراء المغاربة :سكّوا دنانير ذهبية لتسهيل التبادل ولإثبات الشرعية
- المرابطون :وحّدوا المنطقتين تجارياً وأزالوا الحواجز بين الطرفين
- أمراء مالي :وسّعوا شبكات التبادل ووظّفوا الإسلام رابطاً إيديولوجياً جديداً

المحور :الأنظمة النقدية والمالية

أ - المسكوكات والعملات

ضربت الدول المغاربية دنانير ذهبية ودراهم فضية تفاوتت في عيارها تبعاً لنقاء الذهب المستورد من السودان .وحملت هذه المسكوكات اسم الحاكم وشهادة التوحيد، مما جعل منها أداةً سياسيةً واقتصاديةً في آنٍ واحد.

ب - نظام المقايضة في السودان الغربي

ظلّت المقايضة المباشرة السائدة في الأسواق الداخلية السودانية نظراً لغياب منظومة إصدار نقدي محلية .ووصف أبو عبيد البكري ظاهرة التجارة' الصامتة 'وصفاً دقيقاً :يضع تجار السودان بضائعهم في أماكن محددة ويتركونها، فيأتي التجار الشماليون ويضعون مقابلها ما يرونه ملائماً، ويتمّ التبادل دون تفاوض مباشر.

ج - الائتمان والشراكات التجارية

عُرفت عقود القراض والمضاربة بوصفها أدوات تمويل رئيسية بين التجار .ويقدّم أحد الطرفين رأس المال والآخر العمل والخبرة، ويتقاسمان الأرباح المتحصّلة في نهاية الرحلة التجارية .وتوثّق بعض الوثائق المكتشفة في مصر وتونس عقوداً لتمويل قوافل صحراوية بهذا الأسلوب.

د - الضرائب والرسوم التجارية

فرضت سلطات الأسواق مكوساً على كل بضاعة؛ وصف ابن بطوطة أسواق مالي بكثرة الرسوم وتعدد الإتاوات .وكانت هذه الضرائب مصدر دخل رئيسي لخزائن الدول في الطرفين، بل إنها كانت أحياناً سبباً للنزاعات والحروب بين القبائل المتنافسة.

المحور :التداعيات الحضارية والاقتصادية

أولاً :نشر الإسلام في السودان الغربي

ارتبط وصول الإسلام إلى السودان الغربي ارتباطاً وثيقاً بمسارات التجارة .فقد سبق الإسلام الفتوحات العسكرية في هذه المنطقة بأجيال كاملة؛ إذ حمله التجار المغاربة قبل أن تُفكّر أي قوة سياسية في التدخل العسكري .وقد أسلم ملك غانة وفق المصادر في القرن5 هـ، ثم توطّد الإسلام تدريجياً في مالي وسونغاي وكانم-بورنو.

ثانياً :نشأة المدن والحضر

أفضت ثروات التجارة إلى ازدهار مدن جديدة على طول مسارات القوافل .وأصبحت تمبكتو وجني وكومبي صالح نماذج حضرية بالمعنى الكامل، تحتوي على مساجد ومدارس قرآنية وأسواق منتظمة .وقد تحوّلت تمبكتو لاحقاً إلى مركز علمي إسلامي يُضاهي فاس والقيروان في إشعاعه المعرفي.

ثالثاً :التحولات السياسية

مكّنت ثروات التجارة الدول المتحكمة في الطرق من توسيع رقعتها وبناء جيوش منظمة .وارتبطت التحالفات الدبلوماسية بين مالي والمغرب بالمصالح التجارية المتشابكة .كما أفضى تراجع طرق التجارة إلى إضعاف الدول التي كانت تستمد شرعيتها منها.

رابعاً :التأثير على أوروبا

أسهم الذهب السوداني في تعزيز المسكوكات الأوروبية) الديناريوس والفلورين والدوكا (عبر القنوات التجارية المتوسطية في القرنين14-13 م .وقد نبّه الباحثون إلى أن اقتصاد أوروبا الوسيطة كان يعتمد جزئياً على الإمدادات الذهبية الأفريقية عبر المرشّح المغاربي.

خامساً :التأثير الثقافي والمعرفي

تنقّل العلماء والكتب جنباً إلى جنب مع البضائع .نسخ التجار المسافرون المخطوطات وعادوا بها إلى المغرب والأندلس ومالي .وقد حمل علماء من تمبكتو رسائلهم وكتبهم إلى القيروان وفاس، مما أثرى التراث الإسلامي المشترك.

المحور :المصادر والإشكاليات المنهجية

أ - أهم المصادر الأولية

القيمة والمحتوى	المصدر
الوصف الأدق للسودان الغربي وأسواقه وطرق التجارة	أبو عبيد البكري) ت487 .هـ – (المسالك والممالك
الجغرافيا الوصفية لمسالك الصحراء والمراكز الحضرية	الإدريسي) ت560 .هـ – (نزهة المشتاق
شاهد عيان على تجارة مالي وأسواقها في ق8 هـ	ابن بطوطة) ت770 .هـ – (رحلة ابن بطوطة
تحليل اقتصادي وسوسيولوجي لدور التجارة في بناء الدول	ابن خلدون) ت808 .هـ – (المقدمة والعبر
أدق وصف لسونغاي وتمبكتو في أوج ازدهارها	ليون الأفريقي) ق10 .هـ – (وصف أفريقيا

ب - الإشكاليات المنهجية

- شحّ الوثائق الأصلية نتيجة غياب أرشيفات تجارية ممنهجة في كلا الطرفين
- تحيّز المصادر الخارجية) العربية والأوروبية (في تصوير المجتمعات السودانية
- صعوبة الربط بين الموروث الأثري والروايات النصية
- تضارب الأرقام والأوصاف بين مصدر وآخر بشأن كميات السلع وأسعارها
- ندرة المصادر الأفريقية الداخلية المكتوبة لضعف تقاليد الكتابة في المنطقة
- ضرورة توظيف المناهج الأثرية والأنثروبولوجية واللسانية لسدّ الثغرات

خاتمة:

مثّلت التجارة العابرة للصحراء بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي نظاماً اقتصادياً متكاملاً، تشابكت فيه مصالح الدول والتجار والقبائل الوسيطة لقرون متعاقبة .وقد أسهمت هذه التجارة في نشر الإسلام وبناء الحضر وصياغة التوازنات السياسية في المنطقتين.

أبرز الاستنتاجات:

- الاعتماد المتبادل بين الطرفين جعل كل اضطراب سياسي يُلقي بظلاله على الاقتصاد الإقليمي بأسره
- الإسلام كان قوة ناعمة رافقت التجارة ولم تسبقها عسكرياً في أغلب مناطق السودان الغربي
- التكامل الاقتصادي بين المنطقتين يكشف عن نظام عالمي مبكر سابق للعولمة الحديثة
- قراءة هذا التاريخ تتطلب مزج المناهج :التاريخي، الأثري، الأنثروبولوجي والاقتصادي